صدى فتح عكا سنة ٦٩٠هـ في الشعر العربي

دراسة موضوعية

تاريخ الاستلام: ٢٠٠٢/٥/٢٧   تاريخ القبول: ٢٠٠٢/٧/٢٩

د. رائد عبد الرحيم*

Abstract

Crusaders seized Acre more than once during the Middle Ages, and it remained under their control for several years; during which, many fierce battles were waged between them and the Muslims. Raucous battles continued between the two sides until the Mamluks were finally able to conquer and liberate Acre at the end of 690 A.H., thereby ending the Crusader presence in the East. Although this liberation had a tremendous reverberation in Arabic poetry, it has not been addressed in an independent, scientific research. This study will address this issue by examining that poetry and investigating its various contents. Throughout the research I have followed the inductive, descriptive, analytical method; whereby, I scrutinized the texts' various sources by the means of content analysis. The conclusions of the research have been arranged in a preface and six headings:

- Nature of the Conflict
- Image of the Liberation
- Image of the Hero
- Image of the Islamic Army
- Image of Acre
- Image of the Crusaders

(*) أستاذ مساعد/كلية الآداب والعلوم/قسم اللغة العربية وآدابها/جامعة إربد الأهلية.

مُلَخَّص

استولى الصليبيون على مدينة عكّا غير مرّة في العصور الوسطى، وظلّت تحت سيطرتهم سنوات عدّة، دارت خلالها معارك طاحنة بينهم وبين المسلمين.

استمرت المعارك سجالاً بين الطرفين إلى أن تمكّن المماليك من فتحها، وتخليصها نهائياً سنة ٦٩٠هـ، مُنهين بذلك الوجود الصليبي في الشرق.

كان لهذا الفتح صدى كبير في الشعر العربي، ولكنّه لم يحظ بدراسة علمية مستقلة تكشف عن حجمه أو مضمونه، ومن هنا جاء هذا البحث ليدرس ذلك الشّعر وليقف على مضامينه المختلفة. وقد اتبعت فيه المنهج الاستقرائي الوصفي التّحليلي، إذ استقرأت النصوص من مظانها المختلفة، ثم حلّلتها تحليلاً مضمونياً.

انتظم عقد هذا البحث في تمهيد وستّة عناوين هي:

- طبيعة الصّراع.
- صورة الفتح.
- صورة البطل.
- صورة الجيش الإسلامي.
- صورة عكّا.
- صورة الصّليبيين.

تمهيد

احتدم الصراع عنيفاً بين المسلمين والصليبيين في العصور الوسطى، وامتد فترة طويلة من الزمن، تبادل فيه الطرفان النصر والهزيمة.

احتل الصليبيون خلال هذه المدة مدناً إسلامية كثيرة، ومنها عكا، فقد نازلها بغدوين ملك القدس سنة ٤٩٧هـ، وحاصرها، ثم استولى عليها (١). ظلت عكا في يد الصليبيين حتى فتحها السلطان صلاح الدين بن أيوب، سنة ٥٨٣هـ، ولكنها لم تلبث أن سقطت في يد الصليبيين مرّة أخرى سنة ٥٨٧هـ (٢)، وعقب ذلك زادوا في تحصينها، وشحنوها بالرجال والسّلاح، حتى أضحت قلعة منيعة، و"رأس حربة لما يقوم به المسيحيون من اعتداء على سوريا" (٣).

ولمّا قامت الدولة المملوكية في مصر وأجزاء من الشام، وقّع أهل عكّا هدنة مع سلاطين المماليك، استمرت حتى سنة ٦٨٩هـ، إذ ثار الفرنج فيها، وقتلوا عدداً من المسلمين وتجّارهم، ونهبوا أموالهم (٤).

علم سلطان المماليك آنذاك، وهو المنصور قلاوون الألفي، بما فعله الفرنج بالمسلمين، فجهّز جيشاً لفتح عكّا، إلاّ أنّ المنية وافته قبل غزوها (٥)، وقد أشار الشاعر

---

(١) انظر تاريخ ابن الأثير، ٣٧٢/١٠-٣٧٣.

(٢) انظر النجوم الزاهرة، ٤٠/٦.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ٧١٣/٥.

(٤) انظر حسن المناقب السرية، ص٥٨، كنز الدرر، ٣٠٠/٨ – ٣٠١، تاريخ ابن الفرات، ٩٣/٨. بدائع الزهور، ج١ ق٣٦٨/١.

(٥) انظر نهاية الأرب، ١٩٥/٣١، كنز الدرر، ٣١/٨، البداية والنهاية، ٣٥٦/١٣، تاريخ ابن الفرات، ٩٣/٨، السلوك، ج١ ق٧٥٣/٣-٧٥٤، تاريخ الحروب الصليبية، ١٩٤/٥.

شافع بن علي الكاتب [١]، إلى نقض الفرنجة الهدنة، واستعدادات السلطان لقتالهم، إذ قال في قصيدة نظمها عقب فتح عكا [٢]:

خانوا العهودَ ومَنْ يَخُنْ فَجَزاؤُهُ ويلٌ وبيلٌ أَمْرُهُ ودمارُ

نَقَضوا المهادنةَ التي كانوا بها في راحةٍ ما شانها إضرارُ

كان الشّهيد نوى المسيرَ إليهم فقضى عليه الواحدُ القهّارُ

تولى الأشرف خليل بن المنصور قلاوون السّلطة، فعزم على إتمام ما بدأ به والده، فأعد الجيوش وآلات الحصار، ثم زحف نحو عكّا، وحاصرها مدّة أربعة وأربعين يوماً، إلى أن تمكن من فتحها يوم الجمعة سابع عشر جُمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ، وأمر بإخرابها، وهدم أسوارها، وإحراقها، ثم استولت القوات المملوكية دون قتال على حصون الصليبيين الأخرى في الشام، فدخلت بيروت، وصور، وعثليث، وجبيل، وطرطوس [٣]. "ولم يبق في جميع الساحل أحدٌ من الفرنج" [٤].

(١) ولد سنة ٦٤٩هـ، وهو أديب محب للعلم، توفي سنة ٧٣٣هـ، وقيل ٧٣٠هـ، انظر فوات الوفيات، ٩٣/١، حسن المحاضرة، ٢٧٣/١.

(٢) حسن المناقب السرية، ص٦٠، الفضل المأثور، ص١٨٢.

(٣) انظر الفضل المأثور، ص١٧٧-١٧٨، حسن المناقب السرية، ص٥٨، نهاية الأرب، ١٩٥/٣١-١٩٦، كنز الدرر، ٣٠٩/٨-٣١١، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٩٠هـ، ص٤٤-٤٧، زبدة الفكرة، ٢٧٨-٢٨٠، المختصر، ٢٤/٤-٢٥، البداية والنهاية، ٣٥٦/٣-٣٥٧، تاريخ ابن الجزري، ٤٢/١-٤٥، المقفى، ٧٩٥/٣-٧٩٦، السلوك، ج١ ق٧٦٣/٣-٧٦٥، النجوم الزاهرة، ٤/٨-٧، بدائع الزهور، ج١ ق٣٦٨/١، تاريخ الحروب الصليبية، ٦٩٦-٧١٢.

(٤) الوافي، ٣٩٩/١٣، كنز الدرر، ٣١٢/٨، المقفى، ٧٩٦/٣-٧٩٨، تاريخ ابن الوردي، ٢٢٨/٢.

ونظم الشاعر شمس الدين بن الصائغ (١) قصيدة ذكر فيها اليوم الذي سقطت فيه المدينة بيد المسلمين وهو يوم الجمعة، فقال (٢):

فالجمعة الغرّاء كان صباحُها وجه الزّمان بمثلهِ لم يُرْقم

كان لفتح عكّا صدى كبير في الشعر العربي، فقد خلّده الشعراء ونظموا فيه أشعاراً كثيرة، وهذا ما يؤكده عدد من المؤرخين، وهذه أقوال بعضهم:

قال النويري: "وأكثر الشعراء ذكر هذا الفتح" (٣). وذكر في موضع آخر: "وعمل الشعراء في هذا الفتح قصائد كثيرة" (٤).

وقال الذهبي: "وعملت الشعراء القصائد في فتح عكّا" (٥).

وقال ابن كثير: "ونُظمت في فتح عكّا أشعار كثيرة" (٦).

وقال بيبرس المنصوري: "ولمّا أتاح الله هذا الفتح وسهله، وأباحه، وأجابه، وعجّله، قرضه الشعراء، وذكره الفضلاء" (٧).

وقال ابن حبيب: وعُمِلَ في فتح عكا "شيء كثير من النظم والنثّر" (٨).

وقال ابن الفرات: "وعمل الشعراء في هذه الفتوح قصائد كثيرة" (٩).

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن علي، قرأ بالروايات، وجود بالعربية، وصار في عداد الأدباء والشعراء، ومال إلى الأدب ميلاً كلياً، وأقبل على نظم المعاني، وغاص على المعاني، وراعى التورية والاستخدام، الوافي ٢٤٤/٣، وانظر مسالك الأبصار، ج١ ق٨٣/١.

(٢) كنز الدرر، ٣١٥/٨، تاريخ ابن الجزري، ٥٠/١..

(٣) نهاية الأرب، ٢٠٠/٣١.

(٤) المصدر نفسه، ٢٠٨/٣١.

(٥) تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٩٠هـ، ص٥٩.

(٦) البداية والنهاية، ٣٥٩/١٣.

(٧) زبدة الفكرة، ص٢٨٠.

(٨) تذكرة النبيه، ٢٣٩/١.

(٩) تاريخ ابن الفرات، ١١٨/٨.

وقال المقريزي: "وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا الفتح" [١].

وقد وصل من تلك الأشعار سبع قصائد، وست مقطوعات، اتّسمت بعض تلك القصائد بالنفس الشعري الطّويل، في حين جاء بعضها مختزلاً، ونمثل على ذلك بإحدى القصائد التي نظمها الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي [٢]، فقد ذُكر أنّ عدد أبياتها "مائة وخمسون بيتاً" [٣]، إلا أن ما وصلنا منها أحد عشر بيتاً.

ومن ذلك قصيدة شمس الدين بن الصائغ، فقد ورد في بعض المصادر أنها "قصيدة طويلة" [٤]،ولكن البحث لم يكشف سوى أربعة عشر بيتاً منها، وهذا الاختزال ساهم في ضياع تلك الأشعار، وساهم في ذلك أيضاً أن بعض الكتب التي تحدثت عن تلك الفترة، وتناولت سيرة الأشرف ضاعت، ولم تصلنا، ومنها كتابا شافع بن علي الكاتب، "سيرة الملك الأشرف"، "وما يشرح الصدور من أخبار عكّا وصور" [٥]، وكتاب محيي الدين بن عبد الظاهر [٦]، سيرة الملك الأشرف [٧].

ولم أعثر على قصائد وأشعار خاصة نظمت في فتح مدن الساحل الأخرى غير عكّا ولعل سبب ذلك أن هذه المدن سلّمت قيادها للمسلمين دون قتال، بعد أن فرّ عنها سكانها، أو استسلموا للمسلمين.

---

(١) السلوك، ج١، ق٧٦٨/٣.

(٢) ولد سنة ٦٤٤هـ، وسمع الحديث، وعني باللغة والأدب والشعر، كتب الإنشاء، ومكث في ديوانه نحو خمسين سنة، ثم ولي السر بدمشق نحواً من ثماني سنين، إلى أن توفي سنة ٧٢٥هـ. انظر البداية والنهاية، ١٣١/١٤.

(٣) تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦٢، وانظر تاريخ ابن الجزري، ٦٦/١.

(٤) كنز الدرر، ٣١٥/٨، وانظر تاريخ ابن الجزري، ٥٠/١-٥١، مسالك الأبصار، ج١ ق٨٤/١.

(٥) نكت الهميان، ص١٦٤-١٦٥.

(٦) محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي، كتب الإنشاء، وكان شيخ أهل الترسل في زمانه، توفي سنة ٦٢٩هـ انظر فوات الوفيات، ١٧٩/٢-١٩١، المقفى، ٥٧٩/٤، النجوم الزاهرة، ٩٨/٧، شذرات الذهب، ٧٧٣/٧.

(٧) انظر الوافي، ٤٠٣/١٣.

مضامين الأشعار

الصراع بين المسلمين والصليبيين، وأشادوا بالبطل الفاتح الأشرف خليل بن قلاوون، وصوّروا الفتح، والجيش الإسلامي الذي غزا عكّا، وتحدثوا عن عكّا، وقارنوا بين حالها قبل الفتح وبعده، وصوّروا هزيمة الصليبيين وما آل إليه حالهم.

طبيعة الصّراع

اتخذت الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية صبغة دينية [1]، وقد تحدث الشعراء عن ذلك منذ الحملة الصليبية الأولى، إذ صوّروا في أشعارهم التي واكبت تلك الحملات الغزاة قوماً يهدفون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، والاستيلاء على أرضهم، ولا تكاد تخلو قصيدة صوّرت هذا الصراع من الحديث عن ذلك، ومنها الأشعار التي نُظمت في فتح عكّا، فقد عبر قائلوها عن ذلك بغير طريقة، فأسبغوا على الفرنج صفات كثيرة، تدل على طبيعة صراعهم مع المسلمين، وعداوتهم لهم، وخروجهم عن أوامر الله ونواهيه.

ويحقّ للشعراء ذلك، فقد كان المسلمون في عكّا يعيشون حياة ضنكى، يُضيّق الصليبيون الخناق عليهم، فيمنعونهم من حرية العبادة، ويطاردونهم في أرزاقهم، وتجلت هذه المعاني في الشعر، فالشاعر شمس الدين بن الصائغ، يصور حياة البؤس التي عاشها المسلمون هناك قبل الفتح، إذ قال مخاطباً الأشرف [2]:

وأعدْتَها للمسلمينَ ولم يكنْ منهم يَرى القِمْطيرَ إلا بالدّم

(١) انظر كتاب د. محمد صالح، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. قاسم عبده، الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية.

(٢) كنز الدرر، ٣١٥/٨، تاريخ ابن الجزري، ٥٠/١.

وكان الصليبيون يمنعون المسلمين من الجهر بالآذان، وحين فعل بعضهم ذلك، قتلوا ولطّخت بدمائهم جدران المسجد [١]. وبلغ من حقد الصليبيين على المسلمين هناك، أن هاجموا النصارى السريان، ظنّا منهم أنهم مسلمون بسبب إطالة لحاهم [٢].

ولهذا صوّر الشعراء الصليبيين كفاراً، وأيامهم في عكّا أيام الكفر، أزالها انتصار المسلمين عليهم، وتجلى ذلك في قول محمد المنبجي البزاز [٣]، مخاطباً الملك الأشرف[٤]:

أنت الذي لم تدَع للكفر من بلدٍ　　　يأوي إليه ولا للدّين من أمَل

وقول شافع بن علي الكاتب [٥]:

ومَحَت ليالى الكفر بيضٌ قد بدا　　　منها لعين الناظرينَ نهار

وصوّرهم محيي الدين بن عبد الظاهر أهل كفر وإلحاد، إذ تحدث عن مصيرهم، وما فعل بهم الملك الأشرف، فقال [٦]:

جاء عكا مُحاصرا فتداعَت　　　ولأهل الإلحاد صارت لحودا

كم إلى الكافرينَ والى وعيدا　　　منهُ أنساهم صِياما وعيدا

ووسمهم الشعراء بالشرك، ودولتهم بدولة الصليب، وجعلوا هزيمتهم، انتصاراً للدين الإسلامي وإعلاء للحقّ، وهذا ما عبر عنه الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي في قوله[٧]:

الشرك انجلى وانجلَت ظلماته　　　والدّين قرّ وأشرَقت قسَماتهُ

---

(١) انظر كنز الدرر، ٣٠١/٨.

(٢) الحركة الصليبية، ١١٧٨/٢.

(٣) محمد بن عمر بن أحمد أبو عبد الله، بدر الدين المنبجي، ولد سنة ٦٤٩هـ، وتفقه، وبرع في الأدب ونظم الشعر، توفي سنة ٧٢٣هـ في القاهرة، انظر المقفى، ٤٠٤/٦-٤٠٥.

(٤) زبدة الفكرة، ص٢٨١، تاريخ ابن الفرات، ١١٤/٨.

(٥) حسن المناقب السرية، ص٥٩، الفضل المأثور، ص١٨٢.

(٦) الفضل لمأثور، ص١٧٨.

(٧) تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦٢، تاريخ ابن الجزري، ٦٦/١.

وقوله [1]:

الحمـدُ لله زالـت دولـة الصُّلُـب ... وعزّ بالترك دينُ المصطفى العربـي

ما بَعْـدَ عكـا وقـد هُـدّت قواعدُهـا ... في البَحْرِ للشرك عند البرّ مـن أرب

لم يَبْق مِـنْ بَعْدِهـا للكفـر إذ خربـت ... في البرّ والبَحْر ما يُنجي سوى الهَرَب

وصوّر الشعراء ما نزل بالصليبيين في عكّا غضباً من الله عليهم، وعقاباً لهم على اجتنابهم أوامره، واتباعهم نواهيه، وجعلوا مصيرهم في الآخرة جهنم، يصطلون بنارها[2]، وهذا مآل طبيعي لكفرة، وأهل شرك وإلحاد، كما يبدو في قول محيي الدين بن عبد الظاهر [3]:

يـا بنـي الأصْفـر قـد حـل بكـم ... نقمـة الله التـي لا تنفصِـل

قـد نـزل الأشـرف فـي سـاحلكم ... فأبشـروا منـه بصَفْـع مُتصـل

وقرن محيي الدين بن عبد الظاهر في قصيدة أخرى، مصير الصليبيين في عكا بمصير الأمم البائدة، عادٍ وثمود، الذين كفروا بالله، فأهلكهم، وهنا يظهر الصراع بين الكفر والإيمان جلياً، إذ تأثر الشاعر بالقرآن الكريم، فربط شخصية الأشرف خليل بن قلاوون بشخصية النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، وصوّر النار التي كانت برداً وسلاماً عليه، حريقاً اصطلى به الفرنج وأمراؤهم، وتجلى ذلك في قوله [4]:

حتـمَ الله قتلـهم حتـى أمسـى ... كـل نقـب فـي سـورهم أخـدودا

خرّبـوا مَسْـجدَ الصـّالح فيـها ... فأتـاهمْ مـا كـان أردى ثمـودا

---

(١) نهاية الأرب، ٢٠٣/٣١، كنز الدرر، ٣١٥/٨، الوافي، ٤٠٦/١٣، فوات الوفيات، ٤١٠/١- ٤١١، تاريخ الإسلام، حوادث، ٦٩٠هـ، ص٥٩، البداية والنهاية، ٣٥٩/١٣، تاريخ ابن الجزري، ٦١/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٨، المقفى، ٨٠٨/٣، عقد الجمان، ٧٣/٣ .

(٢) انظر الوافي، ٣٧/٧، أعيان العصر، ٧٣/٣.

(٣) السلوك، ج١ ق٧٦٦/٣، بدائع الزهور، ج١ ق٣٦٩/١.

(٤) الفضل المأثور، ص١٨١.

وبه عاد هلك عاد إليهم إذ له المؤمنون أمسوا شهودا
عجبا يا خليل نارك برد وهي تشوي من الفرنج الكنودا

أما المسلمون، فجاءت الصورة العامة لهم أنهم أهل الحق والدين القويم، وجعلهم الشعراء جنود الله، يدافعون عن الدين والهدى والإيمان، ويغضبون لله، لا لحطام الدنيا ومتاعها الزائل، ولذا أيدهم الله بملائكته، ونصرهم على أعدائه (١)، ويتضح ذلك في قول شهاب الدين محمود الحلبي (٢):

ففاجأتها جنود الله يقدمها غضبان لله لا للملك والنسب

وقول محيي الدين بن عبد الظاهر مصورا ما فعله الله بعكا ومدن الساحل الاخرى(٣)

ويل عكا وويل إخوة عكا بدد الله شملهم تبديدا

حظيت عكا بمكانة مرموقة عند الصليبيين نظرا لمنعتها، ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي جعلها نقطة تجمعهم للهجوم على الشرق الإسلامي.

ولها منزلة أخرى يوضحها الدواداري في قوله: "وهذه عكا يعظمها النصارى جميعهم، من سائر طوائفهم في الملة النصرانية لأجل الناصرة، وهي القرية التي خرج منها المسيح عليه السلام، وأمه مريم، عليها السلام، والناصرة قرية بظاهر عكا، فلهذا السبب لا يزال الفرنج يقصدونها، ويطلبون أخذها من المسلمين، ويعظمونها كتعظيم بيت المقدس، وبها أيضا عين ماء تسمى عين البقر، يزورها المسلمون، والنصارى، واليهود، يقولون: إن البقرة التي ظهرت لآدم عليه السلام فحرث عليها، إنما خرجت له من هذه

(١) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(٢) نهاية الأرب، ٢٠٤/٣١.
(٣) الفضل المأثور، ص١٨٠.

العين، وفيها أيضاً مشهد صالح النبي، عليه السلام [١]". ولذا كان سقوطها ضربةً قاسمة للصليبيين، ونهاية للشرق الفرنجي، وقد عانوا من ذلك طويلاً، فظلّت نساء قبرص على إثره مدّة قرن من الزّمان، يرتدين "عند خروجهنّ من دورهنّ العباءات السوداء التي تغطيهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم" [٢]. أما المسلمون، فقد كان لفتح عكّا ومدن الساحل الأخرى أثر كبير في نفوسهم، إذ استبشرت به، واطمأنت قلوبهم، وأمنوا في ديارهم، ولم تعد هناك غزوات صليبية تروّعهم، وتقضّ مضاجعهم. ويتحدث أبو الفداء عن أهمّية هذا الفتح، إذ قال مشيراً إلى الأشرف قلاوون: "واتّفق لهذا السلطان من سعادة ما لم يتّفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال، ولا تعب ..، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد السّاحلية للإسلام، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يُرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصريّة، وعلى ملك دمشق، وغيرها من الشام، فلله الحمد والمنّة على ذلك" [٣].

خصص الشعراء جزءاً كبيراً من أشعارهم للحديث عن الفتح وآثاره، وكان قد تنبأ به بعضهم [٤]. يذكر أن الشيخ الأديب شرف الدين البوصيري [٥] رأى "في منامه قبل مسير الملك الأشرف إلى حصار عكّا قائلاً ينشد:

قدْ أخذ المسلمون عكا وأشبَعوا الكافرين صكا

وساق سُلطاننا إليهمُ خيلا تدك الجبال دكا

وأقسم الترك مذ سارت لا تركوا للفِرَنج مُلكا

(١) كنز الدرر، ٣١٤/٨.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ٧١٣/٥.

(٣) المختصر، ٢٥/٣.

(٤) التنبؤ بالفتح والنصر على الأعداء أمر شائع في الأدب العربي، انظر د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص٦٥، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص٢٢.

(٥) توفي سنة ٦٩٥هـ.

فلما أصبح البوصيري، أخبر بذلك جماعة، ثم سار الملك الأشرف في أثناء ذلك، ففتحها الله تعالى على يده، وكان الأمر كما قال البوصيري، ولم يترك لهم فيها، ولا في بقية الساحل ملكا" (١).

قدم الشعراء صورا مختلفة للفتح، وأكثروا من الحديث عن عظمته، وجلالة قدرة، وصعوبته، وما ذلك إلا لبيان مكانته، في نفوسهم خاصة، ونفوس المسلمين عامة، هذا فضلا عن رغبتهم في تصوير الشجاعة والجهد الذي بذله الملك الأشرف وجيشه في الاستيلاء على عكا.

عبر الشعراء عن غبتطهم بالفتح، إذ صوروا الشعر والنثر عاجزين عن الإحاطة بمآثره، كما يبدو في قول الشاعر محمد المنبجي البزاز (٢):

فتح تطاول عن نثر يحوط به ... وصفا عن نظم شعر محصد الطول

وصوره شهاب الدين محمود الحلبي من الآمال التي كان يصبو إليها المسلمون، ولا يجرؤون على تخيلها حتى في أحلامهم، ثم كشف عن صعوبته، إذ عد كل فتح بعده سهلا يسيرا، وجعله ثأرا لصلاح الدين الأيوبي الذي سقطت عكا في زمانه، يقول (٣):

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب

كانت تخيلها آمالنا فترى ... إن التفكر فيها أعجب العجب

ما بعد عكا وقد لانت عريكتها ... لديك شيء تلاقيه عن تعب

فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها ... مدت إليك نواصيها بلا نصب

كم قد دعت وهي في أسر العدا زمنا ... صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب

(١) تاريخ ابن الفرات، ٨/١١٣-١١٤، وانظر، الوافي، ١٣/٤٠٤-٤٠٥، المقفى، ٣/٨٠٦-٨٠٧، السلوك، ج١ق٣/٧٦٦، بدائع الزهور، ج١ق١/٣٦٩، نهاية الأرب، ٣١/٢٠٥.

(٢) نهاية الأرب، ٣١/٢٠١، زبدة الفكرة، ص٢٨١، تاريخ ابن الفرات، ٨/١١٤.

(٣) نهاية الأرب، ٣١/٢٠٣، ٢٠٦-٢٠٧، كنز الدرر، ٨/٣١٦، ٣١٨، الوافي، ١٣/٤٠٧-٤٠٩، فوات الوفيات، ١/٤١١،٤١٢، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠، ص٥٩، البداية والنهاية، ١٣/٣٥٩، تاريخ ابن الجزري، ١/٦١، ٦٤، تاريخ ابن الفرات، ٨/١١٥،١١٧، المقفى، ٣/٨٠٨، ٨١٠، عقد الجمان، ٣/٧٣.

لبيتها يا صلاح الدين معتقدا بأن ظن صلاح الدين لم يخب

أسلت فيها كما سالت دماؤهم من قبل إحرازها بحرا من الذهب

أدركت ثأر صلاح الدين إذا غضبت منه لسر طواه الله في الكتب

وصوره شافع بن علي الكاتب فتحا عظيما، لا نظير له في ماضي الفتوح، سطرته الكتب في بطونها، وتناقله الناس في أحاديثهم، ومجالس سمرهم، يقول [(١)]:

قد دونت هذي الغزاة وسطرت وتحدثت بحديثها السمار

لا عهد في ماضي السنين بمثلها ولها بطول بقائه أنظار

بشراك هذا مبدأ النصر الذي يعلو به للمسلمين منار

هذا فتوح ما سمعنا مثله كلا ولا جاءت به الأخبار

وربط الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر الماضي بالحاضر، إذ قرن فتح عكا زمن الأشرف بفتحها في عهد صلاح الدين الأيوبي، وبغزوة حنين زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين الروابط المشتركة بين هذه الفتوح، فقد كان الخصم فيها كافرا، وأمد الله المسلمين بجنود من عنده يؤازرونهم، فقال مخاطبا الأشرف [(٢)]:

أيها السامعون فتح صلاح الد ـدين هذا فتوحه قد أعيدا

شكر الله غزوة لك في الكفر أرتنا مقامك المحمودا

كحنين فيها الملائك جاءت مردفات تستصحب التأييدا

وصور الشعراء أثر الفتح في نفوس المسلمين والصليبيين وفي حياتهم، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر، صوره في قصيدته السابقة فتحا جليلا، أحل الأمن في ديار

(١) حسن المناقب السرية، ص٦١، الفضل المأثور، ص١٨٢- ١٨٣.

(٢) الفضل المأثور، ص١٧٩.

المسلمين، وأعز دينهم، فاغتبطت له الأماكن المقدسة. وسخر من الصليبيين، إذ أضحـــوا يتلفعون ثياب الذل والصغار، ويتمنون أن يصبحوا أسرى، أو قروداً، أو يهوداً، يدفعـــون الجزية للمسلمين، يقول (١):

غزوة كم لـــها علـــى الأرض حــق ... عـــمّ بـــالأمن حـــاجرا وزرودا

شـــكرت مكـــة لعكـــة فيـــه ... حُسْـــن إنجازهـــا لفتـــح وعُـــودا

عزّ منها الـــهدى وذل أهـــل عكــا ... وتمنـــوا لـــو يصبحـــون يـــهودا

ويـــؤدون جزيـــة ويصـــيرون ... أســـارى أو يُمْسَـــخون قـــرودا

وركز الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي في قصائده التي نظمها في فتح عكا علـــى المعاني السابقة، ومن ذلك قوله في إحداها، مصوّراً غبطة المسلمين، والأماكن المقدســـة والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وواصفاً حزن الصليبيين، وغضبهم (٢):

يا يوم عكا لقـــد أنسَـيْت مـــا سَـبقت ... بـــه الفتـــوح ومـــا قـــد خـــط بـــالكتب

أغضَبْـــت عبّـــاد عيســـى إذ أبَدْتـــهمُ ... لله أي رضـــىً فـــي ذلـــك الغضَـــب

وأطلعَ الله جَيْـــش النصـــر فـــابْتدرت ... طلائـــعُ الفتـــح بَيـــن السُّـــمر والقضُـــب

وأشرف المصطفى الهادي البشيرُ على ... ما أسْلف الأشرف السلطان مـــن قـــرَب

فقـــرّ عينـــا بـــهذا الفتـــح وابتـــهَجَت ... ببشـــره الكعبـــة الغـــراء فـــي الحُجـــب

وسار في الأرض مَسرى الرّيح سمعتهُ ... فالبرٌّ في طـــرَب والبَحْـــرُ فـــي حَـــرَب

---

(١) الفضل المأثور، ص١٧٩.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠٥/٣١، كنز الدرر، ٣١٧/٨، الوافـــي، ٤٠٨/١٣، فـــوات الوفيـــات، ٤١١/١-٤١٢، تـــاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـــ، ص٦٠، البداية والنهاية، ٣٥٩/١٣، تاريخ ابن الجـــزري، ٦٣/١، تذكـــرة النبيـــه، ١٣٩/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٦/٨-١١٧، المقفى، ٨٠٩/٣-٨١٠.

وفي قصيدة أخرى، كرر الشاعر عبارة "هذا الذي" غير مرة، ليعبر عن غبطته، وغبطة المسلمين بهذا الفتح، الذي كان نهاية للوجود الصليبي في الشام، والشرق كلّه، بعد أن تفرّقوا أيدي سبا، وغنم المسلمون أموالهم وممتلكاتهم، كما يبدو في قوله (١):

هذا الذي كانت تخيّله المُنى وتحيله قدَم العدا وثباتُهُ

هذا الذي كان الرّجاء ببَعْضِهِ بعد النفوس لا تصحّ عداته

هبّ الزّمان من الكرى من بعدما طالت سِنى رقاده وسِناته

والآن قد ذهَبَت بحمد الله عن أرض الشآم عداتنا وعداته

وتفرّقت أيدي سبا وسِباهُمُ جُمِعَت برَغمهم لنا أشتاتهُ

صورة البطل

اهتم شعراء الحروب الصليبية بشخصية البطل أو القائد، ورسموا له صورة مثالية، تجعله أهلاً للحكم والقيادة، ومن ثمَّ النصر على الأعداء، وهذه الصوّر "تتكرر وتتشابه في أبطال هذه الفترة جميعاً" (٢). ولعل هذا راجع، كما يرى عبد القادر أبو شريفة، إلى أن "هدف الشاعر في هذه الفترة هو تمجيد البطولة، والدعوة إليها لتخليص البلاد من المحتلين. وهو في سبيل ذلك لجأ إلى الصفات المثالية مما نتج عنه هذا التشابه" (٣). أضف إلى ذلك أن "طبيعة الأحداث العامة المتشابهة التي عاشها الأبطال في صراعهم مع العدو الصليبي، ألقت بظلالها على صورهم. فالبطل يسعى جاهداً لتوحيد الأمة، وتجهيز الجيش، والقيام بأعمال دفاعية وهجوميّة، والفرق في دور الأبطال منذ ظهور الصليبيين إلى انتهاء أمرهم ضئيل جداً" (٤)، وهناك أمر مهم كان من أسباب هذا التشابه "يرجع إلى ثقافة الشاعر وطبيعة الشعر، فالشعراء في هذه الفترة نهلوا من ثقافة عربية واحدة،

(١) تاريخ الإسلام، حوادث، ٦٩٠هـ، ص٦٢.

(٢) د. عبد القادر أبو شريفة، صورة البطل المسلم في شعر الحروب الصليبية، ص٦٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٥.

(٤) المرجع نفسه، ص٦٥-٦٦.

الشاعر وطبيعة الشعر، فالشعراء في هذه الفترة نهلوا من ثقافة عربية واحدة، وتأثروا بشعر الجهاد والثغور، الذي تفتقت عنه شاعرية أبي تمام والمتنبي، وهذا التشابه في الأصول أدى إلى تشابه في الصور مع الاختلاف في بناء القصيدة وطريقة عرضها. أما طبيعة الشعر، فهو من الشعر الغنائي المتأثر بجو المعركة الواقعي الحار، أو المتأثر بأجواء المعارك في التاريخ، وكلا النمطين يجعل الشاعر يعتمد على محفوظه، أو التعبير عن نفسه بأنماط وقوالب شعرية جاهزة" (١).

ركز الشعراء في أشعارهم التي واكبت فتح عكا على شخصية البطل الأشرف خليل بن قلاوون، فأسبغوا عليها صفات كثيرة، وجلها تقليدية عبر عنها سابقوهم من الشعراء، ومنها سمة السيادة، وجعلوا من مظاهرها عظمة الملك، وامتداد أراضيه، التي شملت البر والبحر، وهذا ما عبر شهاب الدين محمود الحلبي في قوله (٢):

فالله أعطاك ملك البر وابتدأت ... لك السعادة ملك البحر فارتقب

علا بك الملك حتى إن قبته ... على الثريا غدت ممدودة الطنب

ومن مظاهر سيادة الملك الأشرف هيبته، وقد صور الشعراء أثرها في نفوس العدو الصليبي، ومدن الساحل. فالفرنج ملئوا خوفا ورعبا منه، وخارت قواهم، وأضحوا يفرون من أمامه. أما المدن، فعلى الرغم من حصانتها، إلا أنها غدت تتهدم، وتميد أرضها من سطوته، ويتجلى ذلك في قول شافع بن علي الكاتب (٣):

حكمت برفع لوائك الأقدار ... فإليك بالنصر العزيز يشار

فعلت مهابتك التي أعطيتها ... بالرعب ما لا تفعل الأنصار

لما نزلت على الفرنج مطلبا ... دهشوا لما قد شاهدوه وحاروا

---

(١) المرجع نفسه، ص٦٦.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠٨/٣١، كنز الدرر، ٣٢٠/٨، الوافي، ٤١٠/١٣، فوات الوفيات ٤١٣/١٠، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦١، تاريخ ابن الجزري، ٦٦/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٨/٨، المقفى، ٨١١/٣.

(٣) حسن المناقب السرية، ص٥٩، الفضل المأثور، ص١٨١.

سقطت قواهم إذ أتيت بعَسْكر ... ملأ الفيافى، والقفار فخاروا
وعليك أبّهة تلوح وهيبة ... وجلالة وسكينة ووقار

وقال شمس الدين بن دانيال الكّحال (١)، معبراً عن تلك المعاني بصورة جميلة (٢):

صِدْت صَيْدا قنصا وصور وعثليث ... وبيروت بَعْدَ فتحِك عكا
شرفات بَدَت كأسنِمَةِ العيس ... وبانت على المَفاوز بُرْكا
قبّلت هيبة لمقدمِكَ الأر ... ض ومادت بشدّة الخوف منكا

ويستوحي ابن دانيال في قصيدته صورة من الواقع ليعبر عن هيبة الملك الأشرف، ففي تلك السّنة، أي ٦٩٠هـ، مات القائد المغولي أرغون (٣)، فاستغل الشاعر هذه الحادثة، ليجعل موته خوفاً من الأشرف قلاوون وبأسه، كما يبدو في قوله (٤):

عَزْمة أرعَدَت فرائصَ أرغو ... ن فأمسى للخوف لا يتلكا
شام برقا بالشام بيضُك لمّا ... ضَحِكت منه السّواحل ضحكا
فقضى خيفة وقتل أعادي ... ك بأوهامهمْ أشدُّ وأنكا

وأشاد الشعراء بجهاد الأشرف وشجاعته، فأسبغوا عليه صفات تقليدية، إذ صوروه ليثاً، ذا بأس قويّ، وهمّة عالية، آثر خوض غمار الحروب على نعيم الملك والجاه والسلطان، وجعلوا خير دليل على شجاعته فَتحه عكّا، ومدن الساحل الأخرى، تلك المدن التي طالما تمناها غيره من ملوك الأرض، ولكنهم عجزوا عن الظفر بها على الرغم من

(١) محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي الأديب شمس الدين، أديب مشهور في زمانه، ولد بالموصل سنة ٦٤٦هـ، ثم رحل إلى القاهرة، وتوفي فيها سنة ٧١٠هـ، وقيل ٧١١هـ. انظر الوافي، ٥١/٣، المختار من شعر ابن دانيال، ص٥، من مقدمة المحقق، فوات الوفيات، ٣٣١/٣.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص٤٧، الوافي، ٤٠٥/١٣، المقفى، ٧٠٣/٣.

(٣) انظر المختصر، ٢٦/٣.

(٤) المختار من شعر ابن دانيال، ص٤٦.

قوتهم وجحافلهم الكثيرة، ومحاولتهم الدؤوبة لذلك، وتتجلى تلك المعاني في قول شهاب الدين محمود الحلبي [(١)]:

ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم ... يدعون رب الورى سبحانه بأب
كم رامها ورماها قبله ملك ... جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه بل في أوائله ... نال الذي لم ينله الناس في الحقب
لم ترض همته إلا التي قعدت ... للعجز عنها ملوك العجم والعرب

وقول محمد المنبجي البزاز [(٢)]:

وكم فتحت حصونا طالما رجعت ... لليأس عنها الملوك الصيد في خجل
حررت من عكة الغراء ما عجزت ... عنه الملوك بعزم غير منتثل
كم قد دعتها ملوك الأرض راغبة ... وعطفها عنهم بالتيه في شغل
حتى أمرت فأمست وهي طائعة ... بعد الإباء لأمر منك ممتثل
ما زال غيرك فيها طامعا وعلى ... يديك قد كان هذا الفتح في الأزل

واستلهم الشعراء التاريخ، إذ صوروا شجاعة الأشرف، تضاهي شجاعة غيره من ملوك الإسلام، الذين واجهوا أهل الصليب، وانتصروا عليهم، واستردوا بلاد المسلمين، ومنهم صلاح الدين الأيوبي[(٣)]، والمعتصم بالله، وهذا ما عبر عنه شمس الدين بن الصائغ إذ قال [(٤)]:

---

(١) نهاية الأرب، ٢٠٤/٣١، كنز الدرر، ٣١٦/٨، الوافي، ٤٠٧/١٣، فوات الوفيات، ٤١١/١، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٥٩-٦٠، تاريخ ابن الجزري، ٦٢/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٦/٨، المقفى، ٨٠٩/٣، عقد الجمان، ٧٣/٣.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠١/٣١، زبدة الفكرة، من ٢٨١، تاريخ ابن الفرات، ١١٤/٨.

(٣) انظر المختار من شعر ابن دانيال، ص٤٧.

(٤) كنز الدرر، ٣١٥/٨، تاريخ ابن الجزري، ٥٠/١، مسالك الأبصار، ج١ ق٨٤/١.

أشـبهت معتصـم الخلايـف همـة بـالروم فيـك ديارهـا لـم تعصـم
فـأريت عكـا مـا بعموريـة رأت الفـوارس بالزمـان الأقـدم
قـابلت بلـيـق جيوشـه بسـوابق غـر عليـها الرمـح لـم يتقـدم

وأشاد الشعراء بالجانب الإنساني في شخصية بطلهم، فإذا كانت الشجاعة سلاحا فتاكا، يبطش بالأعداء في الحرب، فإن هناك صفات أخرى ينبغي على القائد أن يتمتع بها كي تجعله يأسر قلوب الناس في السلم، وهذه صفات تحلى بها الأشرف قلاوون كما صور ذلك عدد من الشعراء [١]، ومنهم شمس الدين بن دانيال [٢]:

أنت أذكـى الملـوك نشـرا وإن حـاو لت أمرا فـأنت فـي الـرأي أذكـى
وثبـات فـي البـأس عزمـا وحزمـا وثبـات فـي النـاس حلمـا ونسـكا

وأكثر الشعراء في قصائد الفتح من الحديث عن جود الأشرف، وكرمه، وعطاياه الجزيلة، وجعلوا ذلك سمة أصيلة في نفسه، ويتبين من البحث أن الشعراء رغبوا في التكسب، ويؤكد ذلك أمران:

الأول: أن جلهم ألقوا قصائدهم أمام الملك، في حفل أقيم عقب الفتح، وحضره رجال الدولة، والأمراء، والعلماء، والفقهاء، والأدباء [٣].

الثاني: أن صفات الجود والكرم جاءت في الغالب في نهاية قصائدهم، فكانت آخر ما يبقى في سمع الأشرف، الذي كان يتحدث اللغة العربية ويفهمها [٤].

وممن أسبغوا عليه تلك الصفات الشاعر شافع بن علي الكاتب، إذ رسم له صورة تقليدية، فجعله سحابة تعطي دون حساب، وصور بيته محجا للفقراء والبائسين، يجدون فيه الرفق والغنى، كما يبدو في قوله [١]:

---

(١) انظر نهاية الأرب، ٢٠٠/٣١، زبدة الفكرة، ص٢٨١، تاريخ ابن الفرات، ١١٤/٨.

(٢) المختار من شعر ابن دانيال، ص٤٧.

(٣) عقد الجمان، ٦٩/٣.

(٤) المصدر نفسه، ٦٩/٣.

مَلِكٌ عطاياه الجسام لمَنْ يَروم ... على الدّوام بفيضها مدرار

سُحبُ العَطايا مِنْ سماء يَمينهِ ... للمعتفينَ إذا تسحّ غِزار

أغنى بأنعُمِهِ الفقيرَ فبيتهُ ... بيت الغنى يُهْدى له ويُزار

يعطي الألوف وثغرُه متبسّمٌ ... يبدو عليه بمَنحِها استبشار

ويتجلى سخاء الأشرف وجوده في تلك الأموال الكثيرة التي أنفقها على الجهاد والعباد، وهذا ما عبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر، إذ قال [(٢)]:

يا أجل الملوك يا أشرَفَ الخلـ ... ـق ومَنْ جوده أغاث الوجودا

مَلِكٌ فرّغ الخزائنَ جودا ... وملا الأرض عدّة وعديدا

صورة الجيش الإسلامي

تحدّث الشّعراء في قصائدهم عن الجيش الإسلامي الذي فتح عكّا، وقدّموا له صوراً متنوّعة، تنبئ عن عدده وعدّته، واستعداداته العسكرية من جهة، وعن قوّة جنوده وشجاعتهم من جهة أخرى، وقد جاءت صورة الجيش مكمّلة لصورة البطل، إلا أنها لم تطغ عليها، بل ظلّ البطل محور الشجاعة والبأس، ولولا رأيه وحسن تصرّفه، لما تحقّق النّصر، ولما طُرد الفرنج من بلاد الشام.

صوّر الشعراء عدد الجيش الإسلامي الذي غزا عكّا كبيراً، ملأت جموعه السّهل والجبل، والفيافي والقفار [(٣)]، وبدت لناظرها كاللّيل البهيم. أما أفراده، فذوو بأس شديد، كالأسود في الشجاعة، يتسلحون بالسيوف والرماح، ويمتطون الخيول القوية، وتغطيهم

(١) حسن المناقب السرية، ص٦١-٦٢، الفضل المأثور، ص١٨٣.

(٢) الفضل المأثور، ص١٧٩، ١٨٠.

(٣) انظر حسن المناقب السرية، ص٥٩، الفضل المأثور، ص١٨١.

الدروع من الرأس حتى أخمص القدمين، فلا يظهر منهم سوى العينين، ويتجلى ذلك في قول الشاعر محمد المنبجي البزاز، مخاطباً الملك الأشرف (١):

قصَدْتَها فأصيبت بعدما فجعت ... في أهلها من أسود الغيل بالغيل

في جَحْفَل لجب كالليل أنجُمُهُ ... تبدو لرائيهِ من قضْب ومن أسل

عمّ المهامهَ منْ وعْر ومن أكم ... وطبّق الأرض من سهل ومن جَبَل

تخالهمْ وجياد الخيل تحتهُمُ ... للبأس في الرّوع آسادا على قلل

لا تنظرُ العينُ منهمْ إن هُمُ لبسوا ... لامات حربهمُ يَوما سوى المُقل

صَدمتها بجيوش لو صَدمْت بها ... صمَّ الجبال أزالتها ولم تزل

وصوّر الشّاعر شمس الدين بن الصّائغ ذلك الجيش كالسحب عدداً، اضطربت له أرض الشّام، وغطى غباره الشمس والبدر، يقول (٢):

قلقلت أرض الشام عِندَ دخولها ... ركضا بجيش كالسّحاب عَرَمْرَم

قد كان وجهُ الشمس غيْرَ مُبَرْقع ... لوْلاهُمُ والبدر غيْرَ مُلثم

ويبيّن الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر أن تلك الحشود التي اجتمعت للملك الأشرف وآزرته مصدرها جنوده، ودعم الملائكة والملوك له، يقول (٣):

أنجدَتهُ ملائكٌ وملوك ... كثرت عسكرا له وجنودا

ويصور الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي أفراد الجيش الإسلامي ذوي عزم وبأس وثبات في القتال، الأمر الذي أجبر الصليبيين على التراجع والتقهقر، بعد أن خذلتهم مجانيقهم وحصونهم، فغدوا عرضة للقتل والنهب، يقول (١):

(١) نهاية الأرب، ٣١/٣٠١-٣٠٢، زبدة الفكرة، ص٢٨١-٢٨٢، تاريخ ابن الفرات، ٨/١١٤-١١٥.

(٢) مسالك الأبصار، ج١ ق١ /٨٤.

(٣) الفضل المأثور، ص١٧٩.

جيش من الترك ترك الحـــرب عندهـــم ... عار، وراحتهم ضرب مـــن الوصـــب
خاضوا إليها الردى والبحر فاشتبه الـــ ... أمران واختلفا فـــى الحـــال والســـبب
تســـنموها فلـــم يـــترك ثباتـــهم ... فى ذلك الأفـــق برجـــا غـــير منقلـــب
تســـلموها فلـــم تخـــل الرقـــاب بـــها ... مـــن فتـــك منتقـــم أو كـــف منتـــهب
أتوا حماهـــا فلـــم تدفـــع وقـــد وثبـــوا ... عنـــها مجانيقـــهم شـــيئا ولـــم تثـــب

وتحدث الشعراء عن الأسلحة التي استخدمها المسلمون في فتح عكا، فذكروا أنواعـــا منها، وصوروا دورها في تحقيق النصر، واستئصال شأفة الأعداء.

وأبرز تلك الأسلحة المجانيق، فقد اصطحب المسلمون معهم غير نوع منـــها، مثـــل الفرنجي، والشيطاني، والمنصوري، والقرابغا، وبلغ عددها اثنين وتســـعين منجنيقـــا [(٢)]، ويشير العيني إلى أهمية ذلك السلاح وقتذاك فيقول: "فاعتمدوا بأجمعهم علـــى المجـــانيق، وصارت الأمراء تركب إليها، وتقف على أمرها إلى أن فعلت فعـــلا عظيمـــا، وهدمـــت شراريف الأسوار" [(٣)].

وقد صور الشعراء ما فعلته المجانيق بعكا وعمارتها من هـــدم وإحـــراق وتدمـــير، ومنهم أحمد بن عبد الدايم الشارمساحي [(٤)]، إذ قال [(٥)]:

---

(١) نهاية الأرب، ٢٠٤/١-٢٠٥، كنز الدرر، ٣١٧/٨، الوافي، ٤٠٧/١٣-٤٠٨، فوات الوفيات، ٤١١/١، تـــاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦٠، تاريخ ابن الجزري، ٦٢/١-٦٣، تذكرة النبيه، ١٣٩/١، تاريخ ابن الفـــرات، ١١٦/٨، المقفى، ٨٠٩/٣.

(٢) انظر المختصر، ٢٤/٣، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٤٤-٤٥، نهاية الأرب، ١٩٨/٣١، تـــاريخ ابـــن الجزري، ٤٥/١، تاريخ ابن الفرات، ١١١/٨-١١٢، النجوم الزاهرة، ٥/٨، أكـــرم حســـن، الملـــك الأشـــرف، ص٢٨-٣٢.

(٣) عقد الجمان، ٦٠/٣.

(٤) أحمد بن عبد الدايم بن يوسف ولد بشارمساح سنة ٦٦٣هـ، وقيل ٦٥٣هـ، مهر في الشعر والنظـــم وخاصـــة الهجاء، وتوفي سنة ٧٢٠هـ، انظر الوافي، ٣٦/٧، أعيان العصر، ٧٣١/١، الدرر الكامنة، ١٧١/١-١٧٤.

(٥) الوافي، ٣٧/٧، أعيان العصر، ٧٤/١، الدرر الكامنة، ١٧٣/١.

لا تعجبـوا للمجـانيق التـى رشـقت عكـا بنـار وهدّتـها بأحْجـار
بـل اعجبـوا للسـان النـار قائلـة هذى منـازل أهـل النـار فـى النـار

ويرسم الشاعر أبو تميم [(١)] صورة جميلة إذ استعار صورة الركوع والسجود ليصور طاعة حصون عكّا وذلّها أمام ضربات المجانيق، وقوة بأس الحجارة التي كانت تلقيها، يقول [(٢)]:

للمَنجنيـق علـى الحصـون وقـائعٌ فيـها عجـائبُ للـذي يتفـهّمُ
يومـى إليـها بـالرّكوع مُخادعـا فتخِـرُّ سـاجدة إليـهِ تسَـلمُ

وكان محيي الدين بن عبد الظاهر أكثر شاعرٍ أسـهب فـي وصـف المجـانيق، إذ صورّها صلبةً متينةً، مكسوّة بالجلود، ترمي ناراً وسهاماً وحجارة عظيمة. دويّها كـالرّعد، ودخانها كالسّحب غطى الفضاء. وقد عملت تلك المجانيق عملها، فأثارت الرعب والفـزع في نفوس الصليبيين في عكّا، ودمّرت البروج والأسوار على رؤوسهم. وعبّر الشاعر عن ذلك حين تخيّل حواراً دائراً بين المجانيق وصلبان عكّا، وحين كرّر كم الخبرية غير مرّة، ليصوّر حجم الدمار الذي أصاب عكاّ وعمارتها، يقول [(٣)]:

لـو يكـن للصّليـب نطـق لنـادى أنـت يـا منجنيـق أصلـبُ عـودا
أنـت أولـى بـأخذ ثـأري مِمّـن قـال عنـى كِذبـا وزاد جُحـودا
كـم أرتـهُمْ مـن الرّجـال طريحـا وأرتنـا مِـنْ الزّحـام طـرودا
ولكـم بـالعقود أوفـت ووافـت هادمـات مـن الـبروج عقـودا
كـم مـروج لـها تعـادي بُروجـا وحقـود منـهنّ تبـدي حُقـودا
كـم بأسـوارها أقـامت شـرورا ولأحجارهـا أدامـت شـرودا

---

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) عقد الجمان، ٣/٦٠-٦١.

(٣) الفضل المأثور، ١٧٩-١٨٠، وانظر ص١٨٢، حسن المناقب السرية، ص٦٠.

مـن رآهـا يقـول كونـت السحـــ ــب حجـارا تبـدي الـهفيف رعـودا
كـل سـهم منـها إذا أوقفـوه فلـق الصبـح قـد أقـام عمـودا
تقشـعر الجلـود منـها إذا مـا أبصروهـا وهـن تكسـى جلـودا

وتحدث بعض الشعراء عن الحصار الذي ضربه المسلمون حول عكـا، فصـوروا أيامه قليلة وصوروه حصارا محكما، إذ غـدا الصليبيـون فيـها، كـالمعصم، والجيـش الإسلامي، كالسوار المحيط به، وهذا ما يوضحه قول شافع بن علي الكاتب مخاطبا الملـك الأشرف (١):

أيـام حصرهـم لديـك قصـيرة لـم لا وأيـام السـرور قصـار
دارت جيوشـك حولـها فكأنمـا هـى معصـم وهـم عليـه سـوار

وصور غير شاعر لحظة اقتحام المسلمين عكا، وهجومهم الشامل عليـها بعددهـم وعدتهم، وهذا ما عبر عنه الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي في قوله مخاطبـا الملـك الأشرف(٢):

وجئتـها بجيـوش كالسـيول علـى أمثالـها بيـن آجـام مـن القضـب
وحطتـها بالمجـانيق التـى وقفـت أمـام أسـوارها فـى جحفـل لجـب
ورضتـها بنقـوب ذللـت شـمما منـها وأبـدت محياهـا بـلا نقـب
وبعد صبحها بـالزحف فـاضطربت رعبا وأهـوت بخديـها إلـى التـرب

(١) حسن المناقب السرية، ص٦٠، الفضل المأثور، ص١٨٢.

(٢) نهاية الأرب، ٣١/ ٢٠٧، كنز الدرر، ٨/٣١٨-٣١٩، الوافي ١٣/٤٠٧، فوات الوفيات، ٤١٣/١، تـاريخ ابـن الجزري، ١/٦٤-٦٥، تاريخ ابن الفرات، ١١٧/٨، المقفى، ٨١٠/٣.

صورة عكا

تحدث الشعراء في أشعارهم عن عكا، فصوروها قبل الفتح وبعده. أما عكا قبل الفتح، فبدت مدينة حصينة، ومستعصية على الجيوش والملوك الذين حاولوا غير مرة دخولها والاستيلاء عليها دون جدوى، ولذا كانت قاعدة الصليبيين، وكرسي مملكتهم في الشرق، يلوذون بها عند نزول المصائب بهم، وهذا ما عبر عنه الشاعر شافع بن علي الكاتب، إذ قال [1]:

ما مثل عكا فى الحصون لأنها ... أم القرى يأتمها الكفار
كانت لهم كرسى مملكة إلى ... تحصينها فى المعضلات يصار
كم قد مضى ملك بغصة فتحها ... وبقلبه منها تأجج نار
ماتوا بغيظهم وكم من دونها ... عرضت موانع كلها أعذار

ويعدد الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي مظاهر تلك الحصانة، فيجعلها متمثلة بأبراج عكا المنيعة، وأسوارها القوية، والأسلحة الفتاكة المحيطة بها مثل السهام والرماح والمجانيق، هذا فضلا عن شجعان الصليبيين، الذين كانوا يذودون بكل شجاعة وبسالة وصبر، ويتجلى ذلك في قوله مستوحيا صورة الفلك والشهب [2]:

خرقاء أمنع سوريها وأحصنها ... غلب الكماة وأقواه على النوب
مصفح بصفاح حولها أكم ... من الرماح وأبراج من اليلب [3]
مثل الغمائم تهدي من صواعقها ... بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حولها فلك ... من المجانيق يرمى الأرض بالشهب

---

(١) حسن المناقب السرية، ص٦١، الفضل المأثور، ص١٨٣.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠٣/٣١-٢٠٤، كنز الدرر، ٣١٨/٨، الوافي، ٤٠٧/١٣، فوات الوفيات، ٤١٣/١، تاريخ ابن الجزري، ٦٢/١، ١١٦/٨، تاريخ ابن الفرات، ١١٦/٨، المقفى، ٨٠٩/٣، ولمزيد من الأمثلة انظر تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦٢.

(٣) الحديد والفولاذ.

إن الصور التي قدمها الشعراء تقليدية، لجأ سابقوهم إليها لتصوير عظمة الفتح الذي حققه المسلمون وقادتهم، وإظهارهم بصورة المنتصر، الذي لا يقف أمامه قوّة مهما عظمت.

وصوّر الشعراء مدينة عكّا بعد الفتح، وكان الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي أكثر الشعراء اهتماماً باستجلاء هذه الصّورة، ففي أبيات نظمها في فتح عكّا، استوحى صورة دينية، عبّر فيها عن الدّمار الذي نزل بتلك المدينة وأرجائها، فقد صوّرها نصرانية قبل الفتح، ولكنها أضحت عقبه مجوسيّة بعد أن احترقت أركانها، وتساقطت أبراجها، وتهدمت عمارتها، يقول [(١)]:

مَرَرت بعكا بَعْد تخريب سورها ... وزندُ أوار النار في وسطها وار

وعاينتها بَعْدَ التنصّر قد غدَت ... مجوسيّة الأبراج تسْجُدُ للنار

ومثل تلك الصورة عبر عنها في قصيدة أخرى إذ قال [(٢)]:

وجالت النار في أرجائها وعلت ... فأطفأت ما بصَدْر الدّين مِنْ كرب

أضْحَت أبا لهب تلك البروج وقد ... كانت بتعليقها "حمّالة الحَطب"

وقارن بعض الشعراء بين حال عكّا قبل الفتح وبعده، فالشاعر شافع بن علي الكاتب يتأثر بالصورة التي رسمها أبو تمّام لعمورية، إذ صوّر عكّا فتاة بكراً، افتضّها الأشرف خليل بن قلاوون، فقال [(٣)]:

خبيَت لفتحِكَ فافتضَضت بكارة ... منها وكم لكَ خبِّيَت أبكار

---

(١) نهاية الأرب، ٢٠٣/٣١، زبدة الفكرة، من ٢٨٠-٢٨١، الوافي٣٧/٧، أعيان العصر، ٧٤/١، تاريخ ابن الجزري، ٥١/١، تذكرة النبيه، ١٣٨/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٨، الدر المنتخب، ورقة ١٢، السلوك، ج١ ق٧٦٨/٣.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠٨/٣١، وانظر ٢٠٤، كنز الدرر، ٣١٩/٨، الوافي، ٤١٠/١٣، فوات الوفيات، ٤١٣/١، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦١هـ ، تذكرة النبيه، ١٣٩/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٨/٨، المقفى، ٨١١/٣

(٣) حسن المناقب السرية، ص٦٠، الفضل المأثور، ص١٨٢.

أما محمد المنبجي البزاز، فصوّر عكّا قبل الفتح مدينة عزّ، عاش أهلها في نعيم، ولكنها عقب الفتح، صارت دماراً وخراباً، سُلب عنها حُسنها، وقُتل سُكانها، يقول مصوّراً ذلك، ومعبّراً عن نشوته ونشوة المسلمين عقب الفتح [١]:

فأصْبَحَت بَعْدَ عـزّ المُلك خاضعة … من ذلة المُلكِ طول الدّهر في سَمَل

أمْسَت خرابا وأضْحى أهْلها رمَما … وسطرتها يَدُ الأيّام في المَثل

فسَلبُ بزّتِها عنها وقد عطلت … ألذ للطرف من حُلى ومن حُلل

ومَحْوُ آثارها منها وقد خربت … أشهى إلى النفس من روض الرّبى الخضل

صورة الصّليبيّن

صور الشعراء العدوّ الصّليبي، ونهجوا نهج سابقيهم في نظرتهم إلى الفرنج، وفي تصويريهم لهم قبل الهزيمة وبعدها.

وصف الشعراء الصليبيين مغتصبين، اعتدوا على أراضي الإسلام، واستباحوا ديار المسلمين، وهذا ما وضّحه قول الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي مشيراً إلى عكّا[٢]:

عقيلة ذهَبت أيدي الخطوب بها … دهْرا وشدّت عليها كف مُغتصِبُ

وقدّم الشعراء صورا للصليبيين قبل الهزيمة، وتناولوهم من غير جانب، فقد قيل: إنّ فرنج عكّا لمّا علموا أن المسلمين يستعدون لغزوهم، وينوون المسير إليهم، أرسلوا إلى ملوك الصليبيّن، يطلبون نجدتهم، وعونهم، ويستغيثونهم للتّصدي للمسلمين [٣]، إلاّ أنّ تلك الاستغاثات كما يقول رنيسمان: "لم تؤدّ إلاّ إلى نتيجة ضئيلة"، إذ وصلت "جماعة قليلة من الفرسان، جاءوا متفرّقين، ومن بينهم كان أوتوجراندس السويسري في جماعة من

---

(١) زبدة الفكرة، ص٢٨٢، نهاية الأرب، ٢٠٢/٣١، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٨.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠٣/٣١، كنز الدرر، ٣١٦/٨، الوافي، ٤٠٦/١٣، فوات الوفيات، ٤١١/١، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٥٩، تاريخ ابن الجزري، ٦١/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٦/٨، المقفى، ٨٠٨/٣.

(٣) انظر زبدة الفكرة، ص٢٧٨-٢٧٩، نهاية الأرب، ١٩٨/٣١

الإنجليز، أرسلهم إدوارد الأول ملك إنجلترا" (١). ويذكر بعض المؤرخين المسلمين أن صاحب قبرص بوكة بن سيروك أنجد أهل عكا بنفسه، وأنه "ليلة قدومه عليهم، أشعلوا نيرانا، وشمعا عظيما فرحا به، فأقام عندهم ثلاثة أيام، ثم ركب البحر، فأقلع لما شاهد من هول ما أحيط بهم، ولما رأى من ضعفهم، وانحلال أمرهم" (٢).

تحدث بعض الشعراء عن تلك الاستغاثات والمعونات، ومنهم شافع بن علي الكاتب، إذ وصف حشود الصليبيين، التي قدمت لنصرة أهل عكا كثيرة، ولكنه بين أنها ما جاءت إلا لتلقى حتفها على أيدي المسلمين، يقول (٣):

سألوا ملوكهم إعارة نجدة ... أرأيت روحا للتلاف تعار
فأتتهم من كل جنس عصبة ... ملئت ببرور منهم وبحار
وردوا لسيفك منهلا مستوبلا ... لم يلف عنه لوارد إصدار
وغدوا وكاسات المنون عليهم ... بالمشرفي الأشرفي تدار
لو سلموا سلموا ولكن كابروا ... فأتت أمور لا تطاق كبار

وأشاد عدد من الشعراء بشجاعة الجنود الفرنج، الذين واجهوا المسلمين في عكا، وأشاروا إلى استعداداتهم العسكرية، فصوروهم كماة وشجعانا، يتزودون بأحدث الأسلحة وأفتكها (٤)، وهذا نهج دأب عليه شعراء الحروب الصليبية عامة، كي يبرزوا الفرنج خصما عنيدا، لا يقضى عليه بسهولة ويسر، وما ذلك إلا لبيان صعوبة قتالهم، وبالتالي الكشف عن قيمة الانتصار الذي يحققه المسلمون عليهم.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٦٩٦/٥.
(٢) تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٤٥، النجوم الزاهرة، ص٥/٨.
(٣) حسن المناقب السرية، ص٥٩-٦٠، الفضل المأثور، ص١٨٢.
(٤) انظر نهاية الأرب، ٢٠٣/٣١ .

وغالباً ما جاءت الصور السابقة ممزوجة بحديث الشعراء عن مصير الفرنج وهزيمتهم، وتتجلى ملامح من تلك الصورة في قول شهاب الدين محمود الحلبي (١):

وغاص زرق القنا فى فى زرق أعيُنِهم كأنها شطنٌ يهوي إلى قلب
توقدت وهى تروي فى نحورهمُ فزادها الرّي فى الإشراق واللهب
وذاب من حرّها عنهمْ حَديدهُمُ فقيّدتهمُ به ذعرا يدُ الرّهب
كم أبرزت بَطلا كالطود قدْ بَطلت حواسُه فغذا كالمنزل الخرب
كأنه وسنان الرّمح يَطلبُهُ بُرْج هَوى ووراه كوكبُ الذنب

ووصف الشعراء مصير الصليبيين في عكا عقب الهجوم الإسلامي عليها، وما آلوا إليه من قتل ونهب، وتشتيت، وسبي وأسر، وقد لجأ بعضهم إلى أسلوب المبالغة والسخرية في عرض تلك الصور، ولجأ آخرون إلى الموازنة بين حال العدو الصليبي قبل الهزيمة وبعدها، ليعمقوا صورة الذل الذي حاق بهم، ونزل بساحتهم.

أمّا صور القتل والفناء، فأبرزها الشعراء بجلاء في قصائدهم، فتحدثوا عمّا فعلت أسلحة المسلمين بأجساد الفرنج، إذ جعلتها أشلاء متناثرة في أرض المعركة، تدوسها أقدام الجنود والخيول، هذا فضلاً عن دمائهم التي سالت أنهاراً، وصبغت بحر عكّا بها. وقد ظل المسلمون يفتكون بالفرنج حتى أضحت عكاً خراباً يباباً، بعدما كانت عامرة بالعزّ والجاه، وتجلت المعاني السابقة في شعر غير شاعر، ومنهم شهاب الدين محمود الحلبي في قوله (٢):

---

(١) نهاية الأرب، ٢٠٦/٣١، كنز الدرر، ٣١٨/٨، الوافي، ٤٠٨/١٣-٤٠٩، فوات الوفيات، ٤١٢/١، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦٠، تاريخ ابن الجزري، ٦٣/١-٦٤، تاريخ ابن الفرات، ١١٧/٨، المقفى، ٨١٠/٣.

(٢) نهاية الأرب، ٢٠٦/٣١، كنز الدرر، ٣١٧/٨-٣١٨، الوافي، ٤٠٨/١٣، فوات الوفيات، ٤١٢/١، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦٠، تاريخ ابن الجزري، ٦٣/١-٦٤، تاريخ ابن الفرات، ١١٧/٨، المقفى، ٨١٠/٣، عقد الجمان، ٧٣/٣.

وخاضت البيض فى بحر الدماء فمـــا   أبدت من البيض إلا ســاق مختضـب
أجرت إلى البحر بحرا مــن دمائــهم   فـراح كـالراح إذ غرقـاه كـالحبب
تحكمــت فسـطت فيـهم قواضبــها   قتلا وعفــت لحاويــها عــن السـلب

ومنهم شافع بن علي الكاتب في قوله مشيدا بالملك الأشرف خليـــل وســاخرا مـن الصليبيين إذ جعل قتالهم ضربا من اللهو والطرب والغناء(١):

صبحتـــهم وديـــارهم معمـــورة   فغـدت ولـن يلقـى لــها آثـــار
وتراهـم لمـــا نزلـــت عليـــهم   أرواحــهم جـادت بـها الأعمـــار
غنت سيوفك فى الرقـــاب فـأرقصت   أجســادهم فلـها الـــرؤوس نثـــار
أجريت مـــن دمـهم سـيولا فجـرت   فــى كـل ناحيـــة بـــها أنــــهار
أضحـت منازلــهم خرابـــا كلـــها   قفــراء لـم يوجـــد بـــها ديـــار

ويصور الشاعر محمد المنبجي البزاز ما فعله الأشرف في عكـــا ومـدن السـاحل الأخرى، فما زال يهدم عمارتها، وينهب أموال الفرنج فيـــها، ويشـتت شـملهم، ويبيـد جموعهم حتى أضحت قفرا منهم، يقول (٢):

راحت، وقد ســلبت أرواحــهم بشــبا   الهندي أموالـــهم مــن جملــة النفـل
هدمت ما شيدوا، فرفت مـــا جمعـوا   نقضت مـــا أبرمـوه غــير محتفـل
وعندمـا أصبحـت قفـرا بلادهــــم   من السواحل بعد الأهــل فـــى عطـل
رحلت عنها ولكـــن كـم أقمــت بــها   من خوف بأسك جيشا غـــير مرتحـل

(١) حسن المناقب السرية، ص٥٩، الفضل المأثور، ص١٨١-١٨٢.
(٢) زبدة الفكرة، ص٢٨٢، نهاية الأرب، ٢٠٢/٣١-٢٠٣، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٨.

ويبين الشاعر شمس الدين بن الصائغ أن الصليبيين في عكا أضحوا عبرة لمن يعتبر، ويلقى الضوء على جثثهم، وقد تقصفت فيها الرماح، وملئت منها الخنادق، فيقول[١]:

لم تمل خندقها وقد داروا بها طعنا بغير شظا القنا المتحطم

فغدت ومن فيها بما أوليتها خبرا يقص لمنجد أو متهم

وصور عدد من الشعراء، النهاية المزرية التي وصل إليها ملوك الصليبيين وسادتهم وقادتهم في عكا، إذ أضحوا يتلفعون ثياب الذل والصغار، وغدوا جثثا هامدة، وتتناثر في ساحة المعركة، وهذا ما عبر عنه شافع بن علي الكاتب في قوله [٢]:

أمسى عظيم القدر من كبرائهم شلوا طريحا ماله مقدار

وعلت ملوكهم وقد حصروا بها من بعد عز ذلة وصغار

وسلط بعض الشعراء الضوء على أسرى الصليبيين، وسخروا من حالهم، فالشاعر شمس الدين بن دانيال يتأثر بالمتنبي إذ صور علوج الفرنج وقد فروا من المواجهة، وصاروا عبيدا يساقون كالأنعام، مكبلين بالحديد في البر والبحر، يقول [٣]:

ساقهم كالأنعام برا وبحرا فقطين بعض وبعض مذكى

كل علج أعطى قفاه وولى في انهزام فحقه أن يسكا

أما محيي الدين عبد الظاهر، فصور الأسرى سجناء خزانة البنود [٤]، كما يبدو في قوله [٥]:

---

(١) كنز الدرر، ٣١٥/٨، تاريخ ابن الجزري، ٥١/١.

(٢) حسن المناقب السرية، ص٦٠، الفضل المأثور، ص١٨٢.

(٣) المختار من شعر ابن دانيال، ص٤٨.

(٤) بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، كانت مكانا للرايات والأعلام السلطانية، وفيها أمتعة وذخائر، ثم تحولت زمن المماليك إلى سجن، انظر خطط المقريزي، ٣١٦/٢.

(٥) الفضل المأثور، ص١٧٩.

حَبَسهم في خزانةٍ لبنود ... قال: خافوا إذا رأيتم بُنودا

إن تسمّوا بآخرة فلقد ... صار مناهم بأن يسمّوا عبيدا

وسبى المسلمون نساء صليبيات من عكّا، يقول رنسيمان: "وأسرت أعداد من النسوان، حتى إنه هبط سعر الفتاة في أسواق الرّقيق بدمشق إلى درهم واحد" (١)، وهذا يدّل على كثرتهنّ، وكساد سوقهنّ.

وقد تحدّث الشعراء عن ذلك، فصوروا السبايا نساء جميلات، أصبحن مُلْكَ يمين رجال المسلمين، كما يبدو في قول شهاب الدين محمود الحلبي (٢):

وأبرزت كل خوْد كاعب نثرت ... لها الرّؤوس وقد زفت بلا طرَب

باتت وقد جاورتنا ناشزا وغدَت ... طوْع الهَوى في يدي جيرانها الجُنب

وبهذه الصّور التي عرضها الشعراء للديار والجنود والملوك والقادة والنّساء، اكتملت هزيمة الصليبيين في عكّا، وأحاطت بهم دائرتها، ولم ينج منهم سوى مخبر عن مصيرهم، ومنذر قومه الباقين، وهذا ما يوضحه شهاب الدّين محمود في قصيدته السابقة إذ قال مخاطباً الأشرف (٣):

وأفلت البَحْرُ منهم من يخبّر من ... يلقاه من قومه بالويل والحَرَب

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ٧١٦/٥.

(٢+٣) نهاية الأرب، ٢٠٧/٣١-٢٠٨، كنز الدرر، ٣١٩/٨، الوافي، ٤١٠/١٣، فوات الوفيات، ٤١٣/١، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٩٠هـ، ص٦١، تاريخ ابن الجزري، ٦٥/١، تاريخ ابن الفرات، ١١٨/٨، المقفى، ٨١٠/٣.

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة

-ابن خطيب النّاصريّة، علاء الدين أبو الحسن علي، المنتخب في تكملة تاريخ حلب، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٦٤١، (صورة بالميكروفيلم).

-ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الحادي عشر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ١٥٢٩، (صورة بالميكروفيلم).

المصادر المطبوعة

-ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن الشيباني، ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م.

-ابن إياس، محمد بن محمد الحنفي، ت ٩٣٠هـ، بدائع الزّهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة، محمد مصطفى، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة.

-بيبرس المنصوري، ركن الدين الخطائي، ت ٧٢٥هـ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس. ريتشاردز، ط١، الشركة المتّحدة للتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ — ١٩٩٨م.

-ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، ت ٨٧٤هـ، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، ط١، قدم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٣هـ — ١٩٩٣م.

-ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله القرشي، ٧٣٨هـ، تاريخ ابن الجزري، تحقيق: د. عمر عبد السّلام تدمري، ط١، المكتبة العصّرية، صيدا، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨.

-ابن حبيب، بدر الدين بن عمر الحلبي، ت ٧٧٩هـ، تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبينه، حققه ووضع حواشيه: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة.

-ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

-ابن دانيال، شمس الدين محمد الموصلي الكحال، ت ٧١٠هـ أو ٧١١هـ، المختار من شعر ابن دانيال، اختيار: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، حققه وعلق عليه واستدرك: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.

-الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن وهو الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، مصادر تأريخ مصر الإسلامية يصدرها قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٣٩١هـ — ١٩٧١م.

-الذهبي ، شمس الدين محمد بن عثمان ، ت ٧٤٨هـ ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، حوادث ووفيات ، ٦٨١-٦٩٠هـ ، تحقيق : د. عبد السلام تدمري ، ط١، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

-السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، ت٩١١ ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مصطفى فهمي الكتبي ، القاهرة ، ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م .

-شافع بن محمد علي الكاتب ، ت ٧٣٠هـ ، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق ونشر : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦م .

-نفسه، كتاب الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة المصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٨م .

-الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤هـ، أعيان العصر وأعوان النصر، حققه : د. علي أبو زيد ، د. نبيل أبو عمشة، د. محمد موعد ، د. محمود سالم ، قدم له : مازن عبد القادر المبارك ، ط١، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .

-نفسه، نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق : أحمد زكي بك ، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠م .
-نفسه، الوافي بالوفيات، الجزء الثالث، باعتناء : س. ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م .
-نفسه، الوافي بالوفيات ، الجزء السابع ، باعتناء : د. إحسان عباس ، دار النشر فرانز شتايز، شتوتغارت ، ١٤١١هـ -١٩٩١م .
-نفسه، الوافي بالوفيات ، الجزء الثالث عشر، باعتناء: محمد الحجيري، يطلب من دار النشر فرانز شتاينز شتوتغارت ، دار صادر ، بيروت ،١٤١١هـ ، ١٩٩١م .
-ابن العماد، شهاب الدين أبو الفرج عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، ت١٠٨٩هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، أشرف على تحقيقه، وخرّج أحاديثه، عبد القادر الأرنؤوط، حقّقه وعلّق عليه، محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤١٢هـ.
-العيني، بدر الدين محمود، ت ٨٥٥هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الجزء الثالث، حققه ووضع حواشيه، محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .
-أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه بن أيوب، ت ٧٣٢هـ، المختصر في أخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٩٠٧م .
-ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٨٠٧هـ، تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، حققه وضبط نصّه: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦م.
-المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الثالث، صحّحه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ، ١٩٧٠م.
-نفسه، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشيه: خليل المنصور ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

-نفسه، المقفى الكبير، ط١، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

-الكتبي، محمد بن شاكر، ت ٧٦٤هـ، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٣م -١٩٧٤م .

-ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ط١، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م .

-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الحادي والثلاثون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .

-ابن الوزدي، زين الدين عمر بن المظفر، ت ٧٤٩هـ، تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٦م .

المراجع الحديثة

-أكرم حسن العلبي، الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فاتح عكّا ومحرر بلاد الشام من الصليبيين، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.

-رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي – العصر المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧م .

-ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقلة إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

-د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الثاني، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

-د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

-د. عبد القادر أبو شريفة، صورة البطل المسلم في شعر الحروب الصليبية، البلقاء للبحوث والدراسات، المجلد الأول، العدد الأول ، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م ص٤١-٧٢.

-د. قاسم عبده، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩م.

-د. محمد صالح، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٦م.